

الصلاة وبناء الإنسان والعمران □□ عبادة تعيد تشكيل الحياة وتنهض بالأمّة



الثلاثاء 7 يوليو 2026 05:00 م

تحتل الصلاة في الإسلام مكانة لا تشاركها فيها عبادة أخرى؛ فهي ليست مجرد ركن يؤديه المسلم في أوقات محددة، ولا حركات تبدأ بالتكبير وتنتهي بالتسليم، وإنما هي منهج رباني متكامل لإعادة بناء الإنسان، وحفظ قلبه، وتقويم سلوكه، وتنظيم وقته، وربطه بالله وسط زحام الحياة وتقلباتها □ ولهذا تتكرر الصلاة خمس مرات في اليوم واللييلة، حتى لا يبتعد الإنسان طويلاً عن مصدر هدايته، ولا تبتلعه مشاغل الدنيا، ولا يستولي عليه المال أو المنصب أو الشهوة أو الخوف، فيعود كل مرة إلى ربه معلماً أن الله أكبر من كل ما يشغله ويضغط عليه □

ومن هنا يرى الأستاذ عمر إسماعيل رحيم أن رسالة الصلاة تتجاوز حدود الفرد إلى المجتمع والأمّة والعمران كله؛ لأن بناء الحضارات يبدأ ببناء الإنسان الذي يحملها □ فإذا صلح الإنسان صلحت أعماله ومؤسسته وعلاقاته، وإذا فسد ضميره حمل هذا الفساد إلى المال والسلطة والعلم والإدارة □ ولهذا لم يأمر القرآن بمجرد أداء الصلاة، بل قال تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)، فالإقامة تعني الثبات والاستمرار وإقامة أثر الصلاة في الحياة □ والصلاة الحقيقية لا تنتهي عند باب المسجد، بل تمتد إلى السوق والعمل والأسرة والدولة، لتصنع إنساناً يعرف ربه، ويحمل أمانته، ويعمر الأرض بالعدل والرحمة □

الصلاة تعيد للإنسان حقيقة وجوده

أولى وظائف الصلاة أنها تعيد تعريف الإنسان كل يوم □ فالناس في زحام الحياة قد يعرفون أنفسهم بما يملكون من مال أو منصب أو شهرة أو سلطة، وقد يظن الإنسان أن قيمته فيما جمعه أو حققه، فإذا فقد شيئاً من ذلك شعر أنه فقد نفسه □ لكن المصلي يقف بين يدي الله مجرداً من هذه الألقاب كلها؛ فلا يبقى غني ولا فقير، ولا حاكم ولا محكوم، وإنما عبد يقف بين يدي ربه □

إن كلمة «الله أكبر» التي تبدأ بها الصلاة ليست مجرد لفظ افتتاحي، بل إعلان متجدد بأن الله أكبر من المال والسلطة والسوق والخوف والشهوة والأنا □ وحين يستقر هذا المعنى في القلب، يتحرر الإنسان من عبودية الأشياء، ويدرك أن ما بين يديه أمانة، وأن القوة تكليف، والعلم مسؤولية، والثروة اختبار، والسلطة ليست باباً للاستعلاء وإنما ميداناً للحساب □

وهكذا تصنع الصلاة الإنسان المستخلف، لا الإنسان المستهلك الذي يعيش ليأخذ فقط □ تعلمه أنه مسؤول عن الأرض، وعن الناس، وعن كل قدرة وضعها الله بين يديه □ فالطبيب مؤتمن على الحياة، والمعلم مؤتمن على العقول، والتاجر مؤتمن على الحقوق، والقاضي مؤتمن على العدل، والحاكم مؤتمن على مصالح الناس □

الصلاة تحرر الإنسان من عبودية الزمن

يعاني الإنسان المعاصر من ضغط الوقت وسرعة الحياة، حتى أصبح كثير من الناس يجرون طوال اليوم دون أن يعرفوا إلى أين يتجهون □ وهنا تأتي الصلاة لتعيد تنظيم علاقة الإنسان بزمنه، قال تعالى: (إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا).

فالصلاة لا تترك الزمن نهياً للعمل والتجارة والشاشات والمصالح، وإنما تقسم اليوم إلى محطات يعود فيها الإنسان إلى ربه □ الفجر بداية جديدة، والظهر وقفة وسط الانشغال، والعصر تذكير بما مضى من اليوم والعمر، والمغرب تأمل في أفول الأشياء، والعشاء تسليم وطمأنينة في ختام المسير □

وحين يترك المسلم عمله دقائق ليصلي، فإنه لا يعطل الحياة، بل يمنع الحياة من أن تستعبده [إنه يعلن أن العمل وسيلة وليس معبودًا، وأن الإنتاج لا يساوي شيئاً إذا فقد الإنسان الغاية] ولذلك يلفت القرآن الأنظار إلى قيمة الزمن، فيقسم به فيقول: (وَالْعَصْرِ)، ويقول: (وَالصَّحَى)، ويقول: (وَالْفَجْرِ). فالزمن أمانة، والعمر رأس مال، والصلاة تعلم المسلم ألا يعيش أيامه بلا معنى [

الصلاة تعيد بناء منظومة القيم

لا تنهار المجتمعات بسبب نقص الموارد وحده، وإنما يبدأ انهيارها حين تصبح المصلحة أعلى من الحق، والربح أعلى من الأمانة، والقوة أعلى من العدل، والنجاح أعلى من الضمير [وهنا تؤدي الصلاة وظيفة عظيمة في إعادة ترتيب القيم داخل الإنسان] [

حين يقول المصلي «الله أكبر»، فإنه يعلن أن الحق أكبر من مصلحته، وأن العدل أكبر من نفوذه، وأن الأمانة أعلى من مكاسبه [ولهذا ينبغي أن يخرج من الصلاة بسؤال يرافقه في حياته: هل يرضي هذا العمل الله؟ لا أن يكون السؤال الوحيد: كم سأربح؟

وقد حدد القرآن الأثر الحقيقي للصلاة بقوله تعالى: (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ). فالصلاة التي لا تؤثر في السلوك تحتاج إلى مراجعة؛ لأن المقصود منها أن تمنع صاحبها من الكذب والغش والظلم والخيانة والعدوان [

وحين يقرأ المسلم في كل صلاة: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، يتذكر أن الحياة ليست بلا حساب، وأن كل كلمة وقرار وأمانة ستعرض يوماً على ميزان الله [وهنا تنتقل الأخلاق من رقابة المجتمع إلى رقابة الضمير] [

الصلاة تصنع الضمير الذي لا يغيب عنه الرقيب

لا تستطيع أي دولة أن تضع شرطاً فوق كل إنسان، ولا تستطيع القوانين أن تمنع كل خيانة وغش وفساد [ولذلك تحتاج المجتمعات إلى إنسان يراقب نفسه حين يغيب الناس، وهنا تتجلى عظمة الصلاة] [

فهي تغرس في القلب معنى الإحسان الذي عبّر عنه الحديث النبوي الشريف: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وحين يعيش الإنسان بهذا المعنى، فإنه لا يمتنع عن الخيانة خوفاً من الفضيحة فقط، ولا يصدق طلباً للسمعة، بل يستقيم لأنه يعلم أن الله يراه [

وهذا الضمير هو الحارس الحقيقي للامران [فالفاسد لا يبدأ من ضعف اللوائح وحدها، وإنما من موت الضمير] وقد تمتلك الدولة أفضل القوانين، لكن إن تولى تطبيقها إنسان فاسد تحولت إلى أوراق عاجزة [لذلك تصنع الصلاة الإنسان الأمين الذي يحمل المؤسسة ويحفظ المال العام ويقيم العدل] [

وهنا يعود المعنى القرآني مرة أخرى: (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)؛ فهي لا تعلم الإنسان الخير نظرياً فقط، بل تبني داخله قوة تقاوم الانحراف قبل وقوعه [

من السجود لله إلى عمارة الأرض

قد يظن البعض أن العبادة تصرف الإنسان عن الدنيا، لكن الصلاة الحقيقية تفعل العكس؛ فهي تعيده إلى الحياة أكثر وعياً ومسؤولية [فالسجود لا يصنع إنساناً هارباً من الواقع، بل إنساناً يعرف أن الأرض أمانة وأن إصلاحها عبادة] [

ولهذا يصبح العمل رسالة [الطبيب يداوي بإخلاص، والمعلم يبني الأجيال، والمهندس يتقن، والعامل يحفظ الأمانة، والموظف يصون حقوق الناس] النجاح هنا لا يقاس بحجم الثروة وحدها، بل بحسن أداء المسؤولية [

والإنسان الذي يسجد لله لا ينبغي أن يسجد لطاغية أو لشهوة أو لمال [ومن هنا تنبع الحرية الحقيقية؛ لأنها ليست التحرر من كل قيد، وإنما التحرر من كل عبودية إلا العبودية لله] [

الصلاة تبني المجتمع المتعاضد

لا تقف آثار الصلاة عند الفرد، بل تمتد إلى المجتمع [ففي صلاة الجماعة يقف الغني إلى جوار الفقير، والمسؤول إلى جوار العامل، متجهين جميعاً إلى قبلة واحدة، خلف إمام واحد] وهذه صورة يومية للمساواة ووحدة المقصد [

وتعلم الجماعة الناس النظام والانضباط واحترام الدور والتعاون [كما أن المسجد يكسر العزلة، فيتعرف الناس إلى بعضهم، ويسألون عن الغائب، ويعينون المحتاج، ويواسون المصاب] ومن هنا يتحول التجاور إلى تعارف، والتعارف إلى ثقة، والثقة إلى تعاون، والتعاون إلى عمران [

فالمجتمع لا يبني بالقوانين وحدها، وإنما يحتاج إلى الصدق والأمانة والرحمة والثقة [وهذه القيم هي رأس مال حضاري لا يقل أهمية عن المال والموارد] [

الصلاة أساس عمران الأخلاقي

الحضارة الحقيقية ليست طرّفًا ومباني وتقنيات فقط، وإنما أخلاق تحكم هذه الأشياء. فما قيمة اقتصاد قوي يقوم على الاستغلال؟ وما قيمة علم متقدم يستخدم في الإفساد؟ وما قيمة دولة قوية تضع فيها كرامة الإنسان؟

لهذا تصنع الصلاة العمران الأخلاقي؛ فتحول الصدق إلى ثقافة، والأمانة إلى قاعدة، والعدل إلى مسؤولية، والرحمة إلى سلوك. وتربي كذلك على الانضباط والنظافة واحترام الوقت والنظام وعدم إيذاء الآخرين.

والصلاة الحقيقية توحد شخصية المسلم؛ فلا يكون له وجه في المسجد ووجه آخر في السوق، ولا أخلاق في العلن وخيانة في الخفاء. ربه واحد، ورقابته واحدة، وقيمه واحدة.

من الإنسان الصالح إلى الدولة العادلة

الدولة لا تكون أفضل من الإنسان الذي يديرها. فالمؤسسات والقوانين تحتاج إلى بشر يطبقونها، ولهذا يبدأ الإصلاح الحقيقي من بناء الإنسان. وقد كان المسجد في المجتمع النبوي مدرسة لصناعة الإنسان الذي يحمل مسؤولية المجتمع والدولة.

والصلاة تربي صاحب السلطة على أن فوق سلطته سلطة الله، وأن المنصب أمانة لا امتياز. كما تربي القاضي والموظف والمسؤول على أن الرقابة البشرية قد تغيب، لكن رقابة الله لا تغيب.

وهكذا تصبح الصلاة ضمانًا داخلية تكمل الرقابة المؤسسية. فهي لا تغني عن القانون والمحاسبة، لكنها تصنع الإنسان الذي لا يبحث دائمًا عن ثغرة للتحايل عليه.

كما تعيد الصلاة تعريف القوة؛ فليست القوة في السيطرة والاستبداد، وإنما في القدرة المنضبطة بالحق والعدل والرحمة. والدولة في الرؤية الإيمانية ليست غاية تعبد الناس، بل وسيلة لخدمتهم وإقامة العدل وصيانة كرامتهم.

الصلاة تصنع الإنسان الصالح والفاعل

تحدث النظريات الحديثة عن تنظيم الوقت، وبناء العادات، وزيادة التركيز والإنتاجية، وكلها أمور نافعة، لكن الصلاة تذهب إلى ما هو أعمق. فهي لا تسأل فقط: كيف نجعل الإنسان أكثر كفاءة؟ بل تسأل: أي إنسان نريد؟

فقد يكون الإنسان شديد الكفاءة لكنه يستخدم قدرته في الظلم، وقد يكون شديد التركيز لكنه يوجه تركيزه إلى الاستغلال. ولذلك لا يكفي أن نصنع إنسانًا فعالًا، بل لا بد أن نصنع إنسانًا صالحًا وفعالًا في آن واحد.

والصلاة لا تكرر الحركات لمجرد صناعة عادة، وإنما تكرر العودة إلى الله وتجديد الوعي وتصحيح المسار. إنها تعيد بناء الإنسان من الداخل حتى يكون الإنجاز محكومًا بالأمانة، والقوة بالرحمة، والطموح بالقيم.

خاتمة: حين تقيم الصلاة الإنسان

إن الصلاة في الرؤية القرآنية ليست شعيرة معزولة عن الحياة، وإنما مدرسة يومية لبناء الإنسان والأمة. فهي تعرف الإنسان بربه، وتحرره من عبودية الأشياء، وتنظم زمنه، وتبني قيمه، وتوقظ ضميره، وتعلمه المسؤولية، ثم تدفعه إلى المجتمع والعمل والدولة حاملًا أمانة الإصلاح.

ومن هنا يتجدد معنى قوله تعالى: (وَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ)؛ فإقامة الصلاة ليست إقامة حركات وأقوال فحسب، وإنما إقامة لمنظومة من الوعي والقيم والضمير والمسؤولية. وحين تقام الصلاة حقًا في حياة الإنسان، تقيم فيه العدل والأمانة والرحمة والانضباط، فيصبح هو نفسه حجر الأساس في عمران صالح.

إن الأمة التي تريد النهضة لا يكفيها أن تبني المصانع والمؤسسات قبل أن تبني الإنسان الذي يديرها، ولا أن تملك القوة قبل أن تملك الضمير الذي يوجهها. وهنا تكمن عظمة الصلاة: إنها تعيد بناء الإنسان خمس مرات كل يوم، حتى يظل جديرًا بأمانة الاستخلاف، قادرًا على عمارة الأرض دون أن يفسد فيها، قويًا دون أن يطغى، ناجحًا دون أن يخون، ومتقدمًا دون أن يفقد إنسانيته.

فالصلاة ليست انسحابًا من الحياة، بل إعدادًا للعودة إليها بصورة أفضل؛ وليست توقّفًا عن العمران، بل هي قلب العمران وروحه، لأنها تصل الأرض بالسماء، والعمل بالعبادة، والقوة بالأخلاق، والإنجاز بالمسؤولية. وحين يفهم المسلم هذا المعنى، يدرك أن أثر صلواته الحقيقي يبدأ بعد أن يسلم؛ حين يعود إلى العالم بقلب أصح، وضمير أيقظ، ويد أمين، وإرادة تسعى إلى الخير.